

الفكر الديني عند البشير الإبراهيمي

Religious thought of Al-Bashir Al-Ibrahimi

سهيلة بوساحة¹

جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج الجزائر

Souhyla.boussaha@univ-bba.dz

تاريخ الوصول: 2020/08/12 القبول : 2020/11/11 النشر علي الخط: 2021/06/15

Received: 12/08/2020 Accepted : 11/11/2020 Published online : 15/06/2021

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى النظر في بعض قضايا الفكر الديني عند الإبراهيمي، الذي استطاع بأفكاره أن يُغيّر أمة؛ لأنّ أفكاره كانت استجابة شرطية لواقع يغذيه الصراع بين قوى الاستعمار وقوى الثورة الجزائرية؛ ومع ذلك تتمتع بحرية التفكير الديني، والتي تعتبر سمة بارزة في فكره أسهمت في بلورة هوية المجتمع الجزائري، وهذا ما يفتقد إليه المسلم في الزمن المعاصر، فما قدّمه الإبراهيمي يستجيب معرفيا لنتاج فكري ميّز مرحلة من مراحل التطور الفكري في الجزائر، لجأ فيها المفكرون للدين، وسأحاول تحديد آراء المفكر الجزائري البشير الإبراهيمي المتعلقة بالفكر الديني وتقييمها في ضوء النظريات الفكرية والفلسفية المعاصرة، لإبراز مكانته الفكرية في مسار حركة الفكر العربي والعالمي، حيث أسست القضايا الفكرية التي عالجها لتوجه فكري انعكس لاحقا على آراء المفكرين الأكثر حداثة ومن ثمّ تأسيس رؤية فكرية تراعي الخصوصية الثقافية للمفكر.

الكلمات المفتاحية: الدين، الفكر الديني، آراء الإبراهيمي، الفكر الديني المعاصر.

Abstract:

This study aims to examine the issues of thought for Al-Brahimi, who was able to change a nation. Which was a conditional response to a reality fueled by the struggle between colonialism and revolution; Nevertheless, he enjoyed freedom of religious thinking, which is a prominent feature in his thought that contributed to crystallizing the identity of society, and this is what the Muslim lacks in our time. Brahimi's views were evaluated in the light of contemporary intellectual and philosophical theories, to highlight his position in the course of the Arab and international thought movement, as the intellectual issues he dealt with established an intellectual orientation that later reflected on the opinions of more modern thinkers, and then establish an intellectual vision that takes into account the cultural specificity of the thinker.

Keywords: Religion, religious thought, Al-Ibrahimi's views, contemporary religious thought.

1. مقدمة:

الدين في الفكر الجزائري الحديث تعبيراً عن مرحلة حضارية عاشتها الجزائر، أين أصبح الدين القوة الوحيدة التي بقيت للشعب الجزائري؛ إذ يكشف اتجاه الفكر الجزائري الحديث إلى الدين كفكرة ومعتقد عن تعرضه في تلك الفترة لكثير من الاضطهاد من قبل المستعبر المتشبع بالروح الصليبية، ولأنّ الدين من المنظور السوسيولوجي ليس عقيدة فردية، إنّما هو ما تصبح به الجماعة جماعة؛ حاولت في هذه الدراسة إبراز طريقة تفكير الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي التي اعتمد فيها على الدين كمعتقد وكفكرة، والتي أسهمت في بلورة الرؤية الثورية لديه؛ مع أنّ الإصلاح كان هو الأساس الذي اعتمد عليه الشيخ لتمرير أفكار ثورية وتحررية إلى الشعب الجزائري؛ فأفكاره تغطي عليها سمة حداثة بامكانها، لو تفعل أن تكشف عن تأثيرها في المفكرين الأكثر حداثة، ولقد حاول إصلاح المجتمع والتحاور مع فرنسا، لكن بعد مجازر الثامن ماي استبدل الإصلاح بالثورة التي تتطلب التغيير الجذري، وكلّ ذلك اهتدى إليه بالتفكير المستند على الدين؛ لأنّ مفهوم الإصلاح يتضمن معنى التجديد الديني.

انطلقت من فكرة أنّ الشيخ مفكر جزائري يحتاج إلى تقديم وإبراز، وسبق له أن جادل وفكر بالمنطق والحجة ونجح في دحض المستعمر، فقط يحتاج هو وأمثاله إلى إعادة النظر والإخراج من المحلي إلى العالمي، الشيخ رجل حضارة وفكر، ولقد صاغ أفكاره وفق طريقة تراعي خصوصية الدين ومبادئه، وما قدّمه من صميم قضايا الفكر، خاصة وعيه بالدور المنوط بالدين ووظيفته بالنسبة للمجتمع؛ إذ يدرك مفكرنا القيمة التي تتأتى من اتخاذ الدين كفكرة، وهو في هذا المنحى يشترك مع مفكري جمعية العلماء المسلمين. وسأحاول تحديد قضايا الفكر الديني التي وردت في كتابات الإبراهيمي وتقييمها وفق النظريات الفكرية والفلسفية، محاولة إتباع نهج الاستنباط والاستقراء للوقوف على كيفية استثمار مفكرنا للدين باتخاذ وسيلة لمعالجة القضايا السياسية والاجتماعية للشعب الجزائري.

1. مفهوم الدين:

1.2 المفهوم اللغوي للدين:

جاء في لسان العرب في مادة "دين": الدّيان: من أسماء الله - عز وجل - معناه الحكم القاضي، وسأل بعض السلف عن علي بن أبي طالب -عليه السلام - فقال: كان ديان هذه الأمة بعد نبيها؛ أي قاضيها وحاكمها. والديان: القهار، والديان: الله عز وجل. وقيل: الحاكم والقاضي، وهو فعال من دان الناس، أي قهرهم على الطاعة. يقال: دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا¹ وجاء في مادة (دَيْن) في مختار الصحاح، الدّين: العادة والشأن، ودانته يدينه (دينًا) أدّله واستعبده فدان. الدينُ الجزاء والمكافأة، يُقال دَانَهُ يَدِينُهُ دِينًا أي جازاه، ويقال كما تدينُ تُدانُ: أي كما تُجازى تُجازى بفعلك وبحسب ما عملت، ومنه الدّيانُ في صفة الله تعالى.

والدينُ أيضا: الطاعة، تقول: (دَانَ) له بدين (دينًا) ويقال (دَانَ) بكذا (ديانةً) فهو دَيْنٌ، و(تَدَيْنَ) به فهو مُتَدَيْنٌ²

¹ أنظر: محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء 5، حرف الدال، مادة "دين"، (دار صادر، بيروت لبنان، 1992)، ص 339.

² أنظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، (مكتبة لبنان)، مادة (دَيْن)، ص 91.

وورد في معجم الوسيط، في مادة "دان": دينا وديانة: خضع وذلل وأطاع، ويقال دان له وله منه: اقتصّ، ودان بكذا: اتخذ دينا وتعبد به، فهو دَيِّنٌ. وفلان دِيْنًا، اقترض، فهو دائن، وفلانا دِينًا ودَيِّنًا، أخضعه وأذله. ويقال: دان فلان نفسه وحمله على ما يكره وحاسبه وساسه وجازاه.

الديانة: ما يتدين به الإنسان، الدين: الديانة اسم لجميع ما يُعبد به الله، الدين: الملة والإسلام والاعتقاد بالجنان والإقرار باللسان، وعمل الجوارح بالأركان. الدِّينَةُ: الدَّيْنُ: العبادة والطاعة، الدَّيَانُ اسم من أسماء الله عز وجل: القاضي والحاكم والمجازي بالخير والشر والحاسب والقهار¹.

تمّ تناول لفظة دين في معاجم اللغة العربية وقواميسها بنفس المعاني الواردة في القرآن الكريم، وهي "القهر والسلطة والحكم والأمر والإكراه على الطاعة واستخدام القوة القاهرة فوقه"²، حيث نجد معنى لفظة "دين" يتنوع بتنوع صيغة اشتقاقه؛ "والمادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد؛ فإذا أخذ من فعل متعد بنفسه: "دانه يدينه"، فهو يعني بذلك أنه ملكه، وحكمه وساسه، ودبره، وحاسبه وقضى في شأنه وجازاه وكافأه، يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك من السياسة والتدبير، والحكم والقهر، وهو يعني إلزام الانقياد. وإذا أخذ الدين من فعل متعد باللام "دان له"، معناه أنه أطاعه، وخضع له؛ فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع، وكلمة "الدين لله" يصحّ منها كلا المعنيين: الحكم لله أو الخضوع لله، وواضح أنّ هذا المعنى ملازم للمعنى الأول ومطّوع له: "دانه فدان له" أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع له؛ وهو يعني التزام الانقياد أما إذا أخذ لفظ الدين من فعل متعد بالباء "دان به" و"دان بالشيء" معناه أنه اتخذ دينا ومذهبا؛ أي اعتقده أو اعتاده أو تخلّق به، فيؤدي الدين معنى المبدأ الذي يلتزم الانقياد له؛ وتُشير كلمة دين عند العرب إلى علاقة بين طرفين، يُعظّم أحدهما الآخر ويخضع له؛ فإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرا وسلطانا وحكما وإلزاما، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذي يعبر عنها³.

أما في اللغات الأجنبية فلقد أحدثت لفظة دين Religion جدلا واسعا، حيث ذكر لالاند في معجمه الفلسفي أنّ مختلف القدماء أمثال: "لاكتانس، أو غسطين، سرفيوس" اشتقوا كلمة دين الدين Religio من Religare، ويرون فيه فكرة الربط: سواء الربط الواجب تجاه بعض الممارسات، أو الربط الجامع بين الناس، أو بين البشر والآلهة⁴.

2.2 المفهوم الاصطلاحي للدين:

يشارك في تحديد معنى الدين أصحاب الديانات الثلاث؛ أما "الإسلاميون فقد اشتهر عندهم مفهوم الدين على أنه وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال، والصلاح في المال؛ فالدين يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات، واستعمل الدين على أنه هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظريا وعمليا: فالمذهب العملي لكل امرئ هو عادته وسيرته، والمذهب النظري عنده هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه؛ وكلمة دين التي تستعمل في تاريخ الأديان لها

¹ مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مادة (دان)، (مكتبة الشروق الدولية، دت)، ص: 307.

² أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، (دار القلم، الكويت)، ص: 116.

³ أنظر: محمد عبد الله الدراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، (دار القلم، مطبعة الحرية، بيروت، 1952)، ص 30-31.

⁴ موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، مادة دين، ج3، ط1، (دار عويدات، بيروت 1996)، ص1203.

معنيان: أحدهما "الحالة النفسية" التي نسميها التدين، والمعنى الآخر تلك الحقيقة الخارجية التي يمكن الرجوع إليها في العادات الخارجية، ومعناها جملة المبادئ التي تدين بها أمة من الأمم، اعتقاداً أو عملاً¹ وهو المعنى الأكثر انتشاراً وتداولاً، وهو مفهوم مستوحا من القرآن، الأمر الذي أدى إلى اعتبار الدين ملة: وهي ما يدعو إليه العقل المبلغ عن الإله، توحيده أو هي اسم لما شرعته الإله لعباده على لسان أنبيائه. والفرق بينها وبين الدين: أن الدين والملة متحدان بالذات، ومختلفان بالاعتبار، فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً، ومن حيث إنها تجمع تسمى ملة/ ومن حيث إنها يرجع إليها تسمى مذهباً. والفرق بين الدين والملة والمذهب: أن الدين منسوب إلى الإله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد².

ولقد اتخذ معنى الدين عند علماء الغرب معاني مختلفة، توزعت بين المنظور الاجتماعي والنفسي والفلسفي: حيث "يُكِّز علماء الاجتماع في فهمهم للدين على مفهوم المقدس، لا على مفهوم الألوهية، وللدين في علم النفس تعريفات مختلفة تبعا للمدرسة النفسية أو تبعا للموقف الذي يتبناه صاحب التعريف: فمنهم من يؤمن بالدين ويُمارس طقوسه وشعائره أو لا يُمارسها، ومنهم من يعتبره عرضاً من أعراض الصراعات النفسية التي لم يتم علاجها، ومنهم من ينظرون إلى الدين نظرة متباعدة للفريقين السابقين، ويرى الفلاسفة الدين تلك العلاقة التي تجمع الوعي الذاتي بالله أو الروح المطلق الذي يُحقق ذاته في ذلك الوعي الذي من أجله بالذات يكون وجوده³، وما يمكن قوله أن التعاريف التي وُضعت للدين من منظور علماء الغرب، ورغم توزعها في مجالات مختلفة، إلا أنها تشترك في فكرة أن "حقيقة الدين لا تكفي في تحديدها فكرة الاعتقاد بإطلاق أو فكرة الخضوع من حيث هي، وأنه لا بد من إضافة قيد أو قيود أخرى تُحددها بإبراز عناصرها الجوهرية، لكنها حصرت مُسمى الدين في نطاق الأديان الصحيحة المستندة إلى الوحي السماوي"⁴ مع انتفاء باقي الديانات غير السماوية، ولا تعتبر ديناً مع أنها كذلك.

3. الدين في فكر الإبراهيمي.

1.3 العقيدة الدينية في فكر الإبراهيمي:

تحدث البشير الإبراهيمي عن صلاحية الدين الإسلامي ومناسبته للزمن، ورأى أن الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكل زمان ومكان أن يكون للزمان والمكان والعرف والعادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية⁵ وأن يُعامل معه على أساس أنه دين وإيديولوجيا؛ وهو تفكير حدائثي يكشف عن وعي الشيخ بمسألة تأثير الدين واستمراريتها؛ ففي كل الثقافات هناك وعي شبه تام على أن "الدين والفكر الديني ليسا مرحلة منقضية من تاريخ الفكر الإنساني؛ بل هو سمة متأصلة في هذا الفكر، فكل المؤشرات تدل على أنه ما زال حياً ومؤثراً بطريقة لا يمكن تجاهلها"⁶، إذ شهد الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل إيديولوجيات تظهر وتختفي وكل إيديولوجيا تحمل في طياتها ما يمهد لظهور إيديولوجيا أخرى، أما الدين

¹ أنظر: محمد عبد الله الدراز، الدين، ص: 31-32-33.

² أنظر: محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، (دار قباء، القاهرة 2001)، ص: 15.

³ أنظر: المرجع نفسه، ص: 16-17-18.

⁴ أنظر: محمد عبد الله الدراز، الدين، ص: 37.

⁵ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، التعاون الاجتماعي، محاضرة ألقاها سنة 1929 بعاصمة الجزائر، ضمن آثار الإمام، ج 1، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج 1 (1929-1940)، (دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت 1997)، ص: 52.

⁶ أنظر: محمد رزق موسى أبو حسن، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، (دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دت)، ص: 13-14.

كايدولوجيا لم يعرف مثل هذا الانقضاء؛ لأنه ميزة الفكر الإنساني في حد ذاته، لذلك يعتبر، نظرا لتأثيراته الواضحة واستمراريته، من "المصطلحات الخلافية، التي يثار حولها الجدل"¹، ويمكن أن يكشف لنا حديث الإبراهيمي عن صلاحية الدين وعيه بقضية مصير الدين أمام التطورات العلمية الحاصلة في المجتمع، خاصة مع ظهور النظرية التطورية في مطلع القرن التاسع عشر، وبداية الحديث عن قضية اندثار وفناء الأديان بسبب تقدم الزمن، كما يمكن اعتبار حديثه في قضية أزلية الدين وبقائه وصلاحه تفكيراً مبكراً، ناقشه الفلاسفة حيث نجد الفكرة نفسها عبر عنها "روبرت سبنسر" لما اعتبر الإيمان العنصر الأصيل في الدين، واعتبره قوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية والمكانية.

تحدث الإبراهيمي عن فطرية الدين وبساطته؛ على أنه دين الفطرة، وأنه لا يرجع في أحكامه إلا إلى النص القطعي من كتاب محكم أو سنة قولية أو عملية متواترة² ومع هذه السمة يمكن القول أن هذه الفطرة والبساطة زادت في قوة الدين الإسلامي ومثابته؛ لأنّ "الفطرة هي القوة الغالبة التي لا تزيدها المقاومة إلاّ عنفا واشتعالا، والتي تقهر في النهاية أنصارها وأعداءها على السواء"³.

تحدث الشيخ عن "الأديان السماوية الثلاثة" في الجزائر، وقصد بها ديانات التوحيد الثلاث كما تمثلها اليهودية، المسيحية، والإسلام، والتي وصمها بعضهم بالتحريف والتبديل وخلطها بعضهم بالأجنبي والدخيل، وعاملها بعضهم بالتأويل والتعطيل، ولقد أكدّ الإبراهيمي، أنّ التوحيد هو الأساس الذي تشترك فيه الديانات السماوية ودكّر بالتغيير الذي ألحقه أهلها بها، كالتثليث أو الوثنية، مما أدى لاختلافها، ويرى أنّ فكرة التوحيد الأقرب لإدراك العقل الإنساني من التعدد؛ وأنّ هذه الأديان كتبها وحي إلهي، ولقد أرجع الإبراهيمي أصل الديانات الثلاثة التي تتجاوز في الجزائر إلى السماء⁴، فمناقشة الإبراهيمي لمثل هذه القضايا الفكرية، وفي هذه الفترة الحرجة، وفي الجزائر بالذات، يكشف عن وعي يقظ وثقافة وتكوين فكري مستوحى من الدين الإسلامي؛ الذي قرن الإيمان به بالإيمان بالكتب السماوية التي اصطلح عليها "الأديان الصحيحة المستندة إلى الوحي السماوي، وهي التي تتخذ معبودا واحدا، هو الخالق المهيمن على كلّ شيء"⁵ مما استلزم قيام هذه الديانات على فكرة التوحيد، وتفضيل الشيخ وتأكيده على مصطلح التوحيد يكشف أنّ الذهنية الدينية للإبراهيمي قد وعت، وفي مرحلة مبكرة، بإمكانية تقسيم الأديان، قبل أن تظهر الدراسات المقارنة للأديان وتقسّمها انطلاقاً من تصور الألوهية إلى ثلاثة أنواع يصطلح عليها "أديان الشرك والتي تؤمن بتعدد الآلهة مع خضوعها لله"⁶، الأمر الذي يؤكّده علماء الأديان، وقد عرفت نسبة إلى ذلك، بالدين الإلهي أين تتجلى فيها الحكمة العامة، والتدبير⁷ لا اشتراكها في مسألة الأصل والتوحيد والخضوع، لذا يمكن اعتبار الديانة التوحيدية إطاراً لفهم جميع الأديان الأخرى وتقويمها⁸ والاعتماد على مبدأ التوحيد لقراءة الأديان والمقارنة بينها، مع تأكيد مفكري الأديان اشتراكها في فكرة التوحيد.

¹ موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ط1، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ص: 79.

² محمد البشير الإبراهيمي، التعاون الاجتماعي، ص: 51-52.

³ أنظر: محمد عبد الله الدراز، الدين، ص: 95.

⁴ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص: 78-45، وأنظر: ج4، ص: 68.

⁵ أنظر: محمد عبد الله الدراز، الدين، ص: 37.

⁶ محمد رزق، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، ص: 18-19.

⁷ موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ص: 86.

⁸ محمد رزق، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، ص: 16.

ونُحِيلنا لفظة "تتجاوز" التي استعملها الإبراهيمي إلى قضية تحاور الأديان ونبذ التطرف الديني وصراع الحضارات، ويمكن أن نعتبر حديث الشيخ دعوة لفتح الحوار حول القيم الروحية لشدة احتياج العالم المعاصر إليها. كما يكشف حديثه عن أصل الأديان السماوية عن إدراكه بوجود ديانات أخرى ليس مصدرها السماء، والتي يكون مصدرها الأرض، وأصطلح عليها "الديانات الأرضية ونشأت على يد مجموعة من الحكماء والكهنة"¹ أو الفلاسفة والمفكرين، كما هو الحال مع "البوذية التي تنسب إلى الحكيم بوذا والكونفوشيوسية التي وضعها الحكيم الصيني كونفوشيوس، والذي كان يصر على المطابقة بين السياسة والقواعد الأخلاقية، ووسّع تعبير طقوس الآداب الاجتماعية التي تشير إلى قواعد السلوك الحميد في أي شيء من إجراءات الطقوس الرسمية، إلى تفاصيل قواعد السلوك، وعقيدة الطاوية المنسوبة إلى الفيلسوف لاوتسو وتُعرف بالموهانية وتستند في أدبياتها إلى الكتاب المعروف باسم تاوتو كينغ الذي يتناول البحث في الطريق (طاو= Dao) وفي الفضيلة، الطريق الذي نجده وراء كل التمييزات وهو المسيطر فوق كل مبدأ؛ إنه طريق الطبيعة وطريق الحياة الفردية، الطريق مقياس نفسه،² وغيرها من الديانات البشرية والتي "تتميز بامتزاجها بالرغبات والميول والأهواء"³، لذلك من المفروض أن يوجد لها أصحابها مصطلحات غير مصطلح دين، الذي أدى إلى تعدّد مفهوم الدين نظرا لوجود تعدد الديانات، فالتعريف الذي من الممكن أن ينطبق على الديانات السماوية، يختلف عن ذلك الذي تعرف به الديانات الأرضية"⁴ فقد أدى هذا المسمى الواحد إلى اختلاط الديانات وصعب التفريق بين ما هو سماوي وأرضي أو بشري؛ لكن ما هو ثابت في الأديان أنّ "الإله هو الموضوع الرئيسي للأديان بصفة عامة، ويمكن تصنيف أديان العالم تبعا لموقفها من الألوهية، ومن رؤيتها للإنسان والكون والحياة، والأسس التي تستند إليها"⁵.

ما قادنا للحديث عن الديانات غير الطبيعية أو السماوية كان بهدف توضيح الفروقات الجوهرية بين الأديان ككل، وتوضيح ما بين الأديان السماوية من تقارب واختلاف، والذي أثاره الإبراهيمي في حديثه، والذي يدخل ضمن اهتمامات علم الأديان المقارن، الذي أولاه المستشرقون اهتماما بالغا، حيث نجد "المستشرق الفرنسي" روجي أرنداز Roger Arnaldez في كتابه Trois Messagers pour un seul Dieu الذي ألفه سنة 1983 حاول دراسة مظهر الارتباط بين اليهودية والمسيحية والإسلام، والذي أسس قراءته المقارنة للأديان على مفهوم التوحيد"⁶، وبالنظر إلى تاريخ نشر هذه الدراسة، فتاريخ إلقاء مقالة الشيخ أسبق في الظهور، مما يعني أسبقية الإبراهيمي في المقارنة بين الأديان والحديث عن ما بينها من اتفاق وقيامها على مبدأ التوحيد.

¹ أنظر: موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ص: 80-81.

² أنظر، بيتر كونزمان، فرانز بوركارد، فرانز فيدمان، أطلس الفلسفة dtv ترجمة علي والي، المكتبة الشرقية، شركة الطبع والنشر اللبنانية، لبنان، ط2، 2003، ص: 23، للمزيد انظر أيضا عبد الوهاب المسيري وعزيز العظمة، العلمانية تحت المجهر، ط1، (دار الفكر دمشق، 2000)، ص: 323.

³ موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ص: 86.

⁴ المرجع نفسه، ص: 81.

⁵ محمد رزق، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، ص: 18.

⁶ أنظر: عبد الرزاق الحمامي، من قضايا الفكر الديني بتونس، (الدار التونسية للنشر، تونس، 1992)، ص: 11.

ولقد ساس الإسلام الأرض، حسب الإبراهيمي بقانون السماء، وطُبّق على وجهه الذي جاء به من عند الله¹ لكن الأمر يختلف مع الديانات الأخرى؛ حيث يختلف تصور الألوهية في أديان الشرك التعددية عن أديان الشرك التي تميل إلى التوحيد، وعن أديان التوحيد، بل إنّ تصورها يختلف من دين إلى دين داخل المجموعة الواحدة، تبعا لاختلاف أتباع الدين في فهم النصوص المقدسة؛ ولذا تعددت الفرق العقائدية داخل كل دين² واستثنى الإبراهيمي الدين الإسلامي الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل، لأنّه دين اقتناع أصلح بالتوحيد ما أفسدته الوثنية؛ باعتباره الدستور السماوي الذي لا نقص فيه ولا خلل، والعقائد فيه صافية، ويؤكد الإبراهيمي أنّ الإسلام دين الاتحاد والوفاق بكلّ عقائده، وعباداته، وآدابه؛ فالحكومات الإسلامية تُمارس شؤون الدين بحكم الدين، وتجرى في تصرفاتها فيها وتسيّرها لها على أحكام الدين³ فلقد اهتدى الإبراهيمي إلى التفكير في إمكانية أن يؤدي الدين في الجزائر وظيفة دينية ودينية؛ ولقد نجحت الثورة الجزائرية لما اتخذت من الدين الإسلامي أسسها ومبادئها، وحاولت تثقيف الثوار ثقافة دينية مستوحاة من الإسلام الذي لا يتغيّر لكنّه يُغيّر.

2.2 سوسيولوجية الدين في فكر الإبراهيمي:

تحدّث الإبراهيمي عن "قيادة الدين الإسلامي أهله بقانونه السماوي الشامل لأنواع التدابير المحيطة بمصالح البشر"⁴ وهو وعي وعي مبكّر، نجد معناه متداول عند الفلاسفة والمفكرين المعاصرين؛ والذين يقرون أنّ "الدين هو معرفة الواجبات Duties كلّها باعتبارها أوامر إلهية Divine Commands ممثلة في مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق، واجبات الإنسان نحو الإله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه"⁵، الأمر الذي قاده للحديث عن إدراك الفرد المسلم "لحقائق الدين بموافقتها التامة للمصالح الدنيوية العامة، حيث يُسهم الدين، باعتباره عقيدة، في السمو بالمسلم؛ على اعتبار أنّ الإسلام، حسب الإبراهيمي "يهدّي كل من استهداه، وينفع كل مستعد للانفتاح به، والذي يتم بقيام "الوعظ الديني على أساس صحيح واسع، وطريقة فنية تقتبس من حقائق الدين وحقائق النفس وسنن الله الواقعة في كونه، وتمتّز فيها روحانية الدين بأرواح البشر فتؤثر فيها"⁶ ويضطلع بهذه المهمة "رجال الدين، باعتبارهم من أكثر الناس قربا وقدرة على التعبير عما يؤمنون به، لذا يُستحسن عدم إهمال ما يقولونه في ما يتعلق بموضوع الدين"⁷ السماوي، ولقد أوجب الإبراهيمي على رجال الدين الإسلامي حراسته، وأوكل لهم مهمة الرعاية والقيادة لدينا الحنيف، حيث رُخص للحكومات الإسلامية ممارسة شؤون الدين بحكم الدين، وتجرى في تصرفاتها فيها وتسيّرها لها على أحكام الدين، وترجع فيما يُشكل عليها إلى رجال الدين⁸؛ لأنّهم حراس الدين وقادته.

¹ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، في مؤتمر العالم الإسلامي (1) كلمة في المؤتمر، آثار الإمام ج4، ص: 67-78.

² أنظر: محمد رزق، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، ص: 18.

³ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص: 101، ج4، ص: 69-71-82-95.

⁴ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص: 101.

⁵ أنظر: محمد رزق، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، ص: 16-17.

⁶ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص: 69-73.

⁷ أنظر: موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ص: 83.

⁸ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص: 101، ج4، ص: 61.

تحدث الإبراهيمي عن نهوض الدين بوظائف الحياة الدنيا؛ فهو لا يقتصر على المسائل الدينية فقط، بل يتناول المسائل الدنيوية؛ فالإسلام جالب بقوانينه وأخلاقه لسعادة العالم من خلال حلّ المشكلات الكبرى التي يتخبط فيها العالم¹ لقد تناول الإبراهيمي مسألة فاعلية الدين، وعالجها باعتبارها قضية اجتماعية، وهي من أهم القضايا الفكرية لارتباطها بالإصلاح الذي يهدف إلى النهوض والاجتهاد في الدين؛ فأراؤه ساهمت في تطوير المجتمع الجزائري والإسلامي بصفة عامة.

تفكير الإبراهيمي يتشابه مع تفكير مؤرخي الأديان، في اقتناعه أنّ "الدين من العوامل التي سيطرت على البشر، وأن الإحساس بالدين من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة، ومن المستحيل أن نتصور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى ذهننا فكرة الدين"²، وقد وقف الإبراهيمي على هذه السيطرة في الدين الإسلامي وأرجعها إلى اتصال الإسلام الوثيق بالأصول السماوية واتساع امتداده مع التاريخ، وبقاء أثره في صحائفه، وعمق تأثيره في نفوس معتنقيه لملاءمة روحه روحهم، ولمناسبة الفطرة فيه وفيهم، وتحدث عن حكمة الإسلام العليا؛ أين وضع الموازين القسط للمتضادات فإذا هي متألّفة، ولقد سبق للدين أن أثبت جدواه وصلاحيته لأمر الدنيا والدين، واعتبر الدين الإسلامي دواء العالم مما هو فيه؛ لأنّ عقائد الإسلام في فكر الإبراهيمي صافية، والعبادات خالصة، والأحكام عادلة، والآداب قويمه، والأخلاق مستقيمة، والروح لا يهضم لها فيه حق، والجسم لا يضيع له مطلب³، وكلها قضايا تمّ معالجتها من منظور الفكر الفلسفي المعاصر، الذي تجاوز النظرة التقليدية للدين، وبالتالي فالدين الإسلامي لا يمثل فرعاً من فروع الحياة المتعددة، كما هو الحال بالنسبة للمفاهيم التقليدية والوثنية، إنّما يعتبره علماء الدين منهاج للحياة وللتفكير والعمل، وبهذا يكون الدين متعلقاً بشؤون الحياة المختلفة؛ بسبب مميزات الدين الإسلامي؛ منها خلوّه من الأخطاء العلمية، بل إنه يتعدى العلم ويتجاوزوه، فهو أكثر دقة منه، خلافاً للديانات المختلفة الناتجة عن تفكير بشري⁴؛ فالإسلام نموذجاً للدين في صورته المكتملة⁵، والدليل أنّه لما اتخذ كوسيلة لمعالجة قضايا المجتمع أثبت جدواه، وحقّق للشعوب المستعينة به مبتغاه وحزرها وضمن لها سيادتها.

3.2 . سيكولوجية الدين في فكر الإبراهيمي:

يؤدي الدين وظيفة نفسية سيكولوجية، ولقد أصلح الدين الإسلامي، من منظور الإبراهيمي النفوس التي انخرقت عن صراط الفطرة، وحرّر العقول من رقة التقاليد السخيفة، وربط الشيخ الدين بالعقيدة والعباد والأحكام والآداب، واعتبرها أجزاء ترمي إلى غرض واحد، وهو إصلاح نفس الفرد الذي هو أصل لإصلاح النفسية الاجتماعية⁶، ولقد أثبت علماء النفس أنّ "نفسية الفرد في المجتمعات التاريخية مفعمة بالزرعة الدينية، التي تعد جزءاً من طبيعته"⁷ وحديث الإبراهيمي عن مقدرة الدين الإسلامي تركية

¹ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص: 73-78-94.

² طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، (مكتبة الحياة، بيروت، دت)، ص: 35.

³ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص: 66-69-95. وأنظر الج 3، ص: 78.

⁴ أنظر: موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ص: 85.

⁵ محمد الكتاني، جدلية العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي، ج2، (دار الثقافة، مؤسسة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء)، ص: 71.

⁶ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام ج4، ص: 68-94.

⁷ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ج1، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، (إصدار ندوة مالك بن نبي، 1984)، ص: 64.

النفس وتصفيتهما من الكدورات الحيوانية¹، يكشف عن طريقة تفكير سليمة وحديثة، سبق فيها الشيخ علماء النفس الذين تنبهوا لفاعلية الدين في إحداث التوازن النفسي وتوفير نوعاً من الهدوء والاطمئنان، والتي توصل إليها الإبراهيمي من خلال تفكيره الديني المستند للقرآن والسنة النبوية، قبل أن يُقرّر علماء الأديان أنّ "الدين مذهباً للفكر والعمل تشترك فيه جماعة ما، ويعطي للفرد إطاراً للتوجيه وموضوعاً للعبادة"²، وأنه "يحدّد جانباً من الأساس النفسي العام في أفراد النوع، وكل فرد يبيّن شخصيته الخاصة على هذا الأساس؛ ومعنى ذلك أنّ الدين يتدخل في هذا البناء؛ في تحديد العناصر الشخصية للفرد أو الأنا"³ حيث نجح الدين الإسلامي في اجتثاث الشرور من النفس عن طريق الضمير الإنساني الذي سماه الرسول (ص) وازع الله في نفس المؤمن، ولقد اعتبر الإبراهيمي لحظة الضمير أعلى وأسمى ما جاء به الإسلام من أصول التربية النفسية، وأقرب طريق لتعطيل غرائز الشر في الإنسان⁴، وما ربطه مفكرنا بالضمير اعتبره علماء الأديان قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها؛ لأنّ البشر بتأثير هذه القوة وبأسماء ورموز مختلفة متعددة تأهبوا لإدراك الأسرار الغامضة⁵ في النفس البشرية عن طريق التصور الديني.

لقد تأتى للدين الإسلامي حسب الإبراهيمي، إمكانية نقل الأمم من نزعات نفسية متباينة إلى نزعة واحدة أقرها فيهم، ثمّ أقرها في الأرض بهم؛ نظراً لعمق تأثيره في معتنقيه، لملاءمة روحه روحهم، ولمناسبة الفطرة فيه وفيهم؛ على أساس أنّ "الفطرة من خصائص الدين الإسلامي"⁶، وعملية نقل النفس البشرية من نزعاتها لا تتم إلاّ في إطار العبادات؛ فالدين في الفكر المعاصر عبادة تتجلى في عمل مزدوج، أحدهما عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية، وعمل قلبي أو انعطاف محبة يتوجه به إلى رحمة تلك القوى⁷، ويقرّر الإبراهيمي بفكرة اتصاف الأديان بالقوة والرحمة، وتواجههما في كل زمان، ولكنه يؤكد على تباينهما وعدم اجتماعهما قط في ماضٍ ولا حاضر، إلاّ بمجيء الإسلام الذي جمع بين الصفتين وزاوج عن طريق الدعوة النبوية التي كانت جامعة بطبيعتها لموافقاتها للفطرة، وجمعها بين مطالب الجسم والروح، وانطوائها على حفظ المصالح، وضبطها لنزوات النفس، ولقد أكّد الإبراهيمي أنّ صفتي القوة والرحمة لا تجمع بينهما على وجه نافع إلاّ قوة سماوية تتجلى في نبوة ووحى وخلافة راشدة وإتباع صادق، والذي يؤدي حتماً لإحداث إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها، وبناء للحياة السعيدة⁸ حسب تفكير الإبراهيمي.

لقد ربط علماء الأديان الدين بالسلوك الإنساني؛ لأنّ الإنسان المتدين يُوجّه سلوكه وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ويطلب له أن يشعر باتصاله بها⁹، وعبر الإبراهيمي عن هذه الصلة والخضوع بالحدود

¹ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، الرجوع إلى هدي القرآن والسنة، آثار الإمام، ج4، ص: 68.

² أريك فروم، التحليل النفسي والدين، ترجمة فؤاد كامل، (مكتبة القاهرة، 1977)، ص: 25.

³ أنظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 64.

⁴ أنظر: محمد البشير الإبراهيمي، الرجوع إلى هدي القرآن والسنة، آثار الإمام، ج4، ص: 67-68.

⁵ أنظر: طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، (بيروت، مكتبة الحياة، دت)، ص: 35.

⁶ محمد البشير الإبراهيمي، قضية فصل الدين - ومن فروع هذه القضية: "الحج"، آثار الإمام، ج3، ص: 67-75.

⁷ أنظر: عصمت نصار، نظرات في مقارنة الأديان، (دار الهداية، القاهرة 2005)، ص: 10.

⁸ محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص: 63-65-66-95.

⁹ محمد رزق، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، ص: 17-18.

بالحدود التي وضعها الإسلام بين الحاكمين والمحكومين، وفكر أنّ في نسبة الحدود إلى الله حكمة بالغة في كبح أنانية النفوس¹ فما قدّمه مفكرنا من صميم قضايا الفكر الديني المعاصر، خاصة وعيه بفلسفة الدين ووظيفته بالنسبة للمجتمع ونفسية الفرد.

4. خاتمة:

ناقش الإبراهيمي مسألة صلاحية الدين الإسلامي، ورأى أنّ تحققها مرتبط بكيفية التعامل مع هذا الدين، وتوصل إلى أنّ أفضل معاملة يمكن أن يُعامل بها الدين هو اتخاذه عقيدة وإيديولوجيا، كما يكشف حديث الإبراهيمي عن الأديان الثلاثة في الجزائر عن وعيه بوجود أديان تنقسم انطلاقاً من تصور الألوهية، وهو وعي حدائي يتشابه مع تفكير مؤرخي الأديان، إذا ما قورن بالظروف الفكرية والثقافية التي كانت تُعاني منها الجزائر وقت الاستعمار والحصار.

أهم ما نخلص إليه أنّ مفكرنا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يدرك القيمة التي تتأتى من اتخاذ الدين كفكرة ودين، هذا الإدراك مكّنه من أداء وظيفته مجموعاً غير مشتت. والإبراهيمي في هذا المنحى يشترك مع مفكري جمعية العلماء المسلمين وعلماء الأديان؛ حيث عالج قضية اجتماعية الدين، وهي من أهم القضايا الفكرية لارتباطها بالإصلاح الذي يهدف إلى النهوض والاجتهاد في الدين؛ فأراه ساهمت في تطوير المجتمع وسلوكه، وفكره يحتاج إلى وضعه في مكانه اللائق في مسار تطور الفكر والثقافة الجزائرية التي كانت وما تزال نموذجاً إنسانياً يحتذى، أين استطاع بأفكاره أن يُغيّر أمة، لقد صنع الإبراهيمي من خلال أفكاره، على حدّ قول مالك بن النبي، تاريخ العالم الجزائري والعربي؛ لأنّ تاريخ الفكرة، خلافاً لموضعها في المجال العقدي والمنطق العلمي والاجتماعي، لا يعتمد على خاصيتها الذاتية، بل يستند على تفجّرها، على قدرتها داخل عالم ثقافي، وعلى قوتها في الإطار العام الذي توجد فيه.

وما يمكن تقديمه كافتراحات وتوصيات: ضرورة القيام بعمليات مراقبة وإعادة نظر في الكثير من المنجزات الفكرية التي خلّفها مفكرو الجزائر في المراحل السابقة علينا، خاصة في فترة الاستعمار، لأنهم استطاعوا بإمكاناتهم البسيطة وثقافتهم المحاصرة أن يقدموا منجزات فكرية تكشف عن بعد النظر الحدائي، وتتماشى مع أفكار ونظريات معاصرة، فبالعودة إلى هذه المنجزات ومحاولة تفعيلها في شروط تاريخية مغايرة لشروط كتابتها آنذاك يُسهم في بلورة نظريات فكرية ذات أبعاد إنسانية واجتماعية تشري الثقافة الجزائرية والعربية وحتى العالمية.

5. قائمة المراجع:

- أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، (دار القلم، الكويت).
- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام، ج1 (1929-1940)، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997).
- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3 عيون البصائر، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997).
- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4 (1952-1954)، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997).
- أريك فروم، التحليل النفسي والدين، ترجمة فؤاد كامل. (مصر، مكتبة القاهرة، 1977).

¹ محمد البشير الإبراهيمي، إلى القرآن من جديد، آثار الإمام، ج4، ص: 95.

- بيتر كوزنمان، فرانز بوركارد، فرانز فيدمان، أطلس الفلسفة dtv ترجمة علي والي، ط2، (المكتبة الشرقية، شركة الطبع والنشر اللبنانية، لبنان، 2003).
- طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، (بيروت، مكتبة الحياة، دت).
- عبد الرزاق الحمامي، من قضايا الفكر الديني بتونس، (الدار التونسية للنشر، تونس، 1992).
- عبد الوهاب المسيري وعزيز العظمة، العلمانية تحت المجهر، ط1، (دار الفكر دمشق، 2000).
- عصمت نصار، نظرات في مقارنة الأديان، (القاهرة، دار الهداية، 2005).
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، (إصدار ندوة مالك بن نبي، 1984).
- مجلة البصائر. العدد 13، السنة الأولى من السلسلة الثانية. 26 ذي الحجة 1366 الموافق ل 10 نوفمبر 1947.
- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مادة (دان)، (مكتبة الشروق الدولية، دت).
- محمد الكتاني، جدلية العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي، ج2. (الدار البيضاء، دار التفافة مؤسسة للنشر والتوزيع، دت).
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مادة (دين)، (مكتبة لبنان، بيروت).
- محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء 5، حرف الدال، مادة "دين"، (دار صادر، بيروت لبنان، 1992).
- محمد رزق موسى أبو حسن، المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، (بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، دت).
- محمد عبد الله الدراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، (دار القلم، مطبعة الحرية، بيروت، 1952).
- محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، (دار قباء، القاهرة 2001).
- موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، مادة دين، ج3، ط1، (دار عويدات، بيروت 1996).
- موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ط1، (دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، دت)